

قارون

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين، يُمُتُّ إليه بسبب، وتصل بينهما رَحِم، وقد آتاه الله بسطةً في العيش، وَسَعَةً في الرِّزْق، وكثرةً في الأموال، فاجتمعت له أسباب السعادة، وفاز من الدنيا بنصيب لا يظفر به إلا قليل.

كان قارونُ ذا حَظٍّ عظيم، فقد فاضت خزائنه بالأموال، واكتظت صناديقه بها، حتى ضاق الحَفْظَةُ ذَرْعاً بمفاتيحها، وأثقلهم حملُها، وناء العُصْبَةُ أولو القوَّة بها.

وكان يعيشُ بين قومه عيشةَ البَذَخِ والترف، فكان يلبس الملابس الفاخرة ولا يخرج على قومه إلا في زينته، ويسكنُ القصور، ويصطفي لنفسه الخدم، ويستكثرُ من العبيد والحشم، ويستمتع من الحياة بما يشبع نهمه، ويروي ظمأه، ويريد أن يصلَ إلى الغاية في النعيم، إن كانت للنعيم غاية.

والمالُ منذ الأزل، زينةُ الدنيا وبهجتها، وأساسُ الحياة وقوامها، ومن استَحَوذَ عليه طغى وتكَبَّرَ، واغترَّ وتجَبَّرَ، وظن أن أحداً لن يقدرَ عليه، وخيَّلَ إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته، أو أنهم ما خَلِقُوا إلا مُسَخَّرِينَ له، فإذا تكلم طأطؤا رؤوسهم عند سماع صوته، وإذا أشار كانوا عند إشارته، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه، وكانوا خلصاء له، أو يجب أن يكونوا كذلك وإلا فالويلُ لمن تُحَدِّثُه نفسه بالعصيان، والحرمانُ لمن يقَعُدُ عن نُصْرَتِه، أو يتَوَانِي عن تحقيق أمانيه.

لن يكون قارونُ بِدَعَا في الحياة، وإنما هو كغيره من الناس، يسير سيرتهم ويطرسم طريقهم، فبغى على قومه، وفرض سلطانه عليهم، وسامهم بَطْشَه وجبروته.

وليت هؤلاء الأغنياء يخَفِّفُونَ من غُلُوِّائِهِم، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح، ويتبيَّنون منها الطريق الواضح، إذا لعرفوا أن المال وحده لا يُخْضَعُ

الرقاب، ولا يستذلُّ العباد، وإنما الناسُ عبيدُ الإحسان، يستطيعون أن يجعلوهم طوعاً بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم، وأطعموهم شيئاً من طعامهم.

لعلهم بذلك يستميلون القلوب، ويدفعون الكثير من الشر، ويجلبون لأنفسهم الخير، ويجمعون الناس على محبتهم، والالتفاف حولهم؛ ولعلهم بذلك أيضاً يدركون رضا الله، فيكافئهم بثوابه، ويجزيهم بجنته، فينالوا الحسنين: حسن الأحدث في الدنيا، وحسن الجزاء في الآخرة.

ولكنها القلوب يغريها المال، والبصائر يذهب بها الزهو والغرور، فلا ترى إلا جماعات المرائين، ولا تسمع إلا كلمات المنافقين، ولا تحس نقمة المحروم ولا لوعة المظلوم.

* * *

رأى القوم أن قارون سادراً في طغيانه وبغيه، لا هم له إلا أن يستكثر من المال وإن تصوّر غيره جوعاً، وأن يكتسى من اللباس ما يزين به وإن رأى العري فاشياً، هذا مع غرور واستثار، وبطر^(١) واستكبار.

لمّا رأوا منه ذلك نعموا عليه طريقه، وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير، وأن ينبّهوه على ما غاب عنه، ونصحوه ألا يغويه المال أو يضلّه، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه، وإقالة عثرة المحتاجين، ومسح دموع البائسين، فبذلك يكسب الحمد في الدنيا، وينال الثواب في الآخرة، وهذا خير من المال وأبقى.

وقالوا: إنا لا نريد أن تنفض يدك من الدنيا وزينتها، وتتجافى عن مباحجها وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها، فذلك ما لا نريده ونأباه، وإنما نرى لك رأياً فيه خير لنا ولك، هو أنك تقصد إلى الطيب من الرزق، والحلال من المتاع، فارشف من منهله، وخذ فيه كما تشاء.

على أن لا يشغلك ذلك عن الفقراء، ولا ينسبك المحتاجين، فأحسن إليهم كما أحسن الله إليك، ليحفظ عليك نعمتك، ويزيد في مالك، ويضفي عليك خيره وبركته.

(١) البطر: كفران النعمة.

على أن المال ظلّ زائل؟ وَوَدِيعَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، فلا تفرح بما أوتيت، ولا تغترّ به، واتخذهُ وسيلةً لقضاء مآربك في الدنيا، وسبيلاً إلى سعادتك في الآخرة، وما حَمَلْنَا على إسداء النُصْحِ إليك إلا حُبُّنَا لك، وَرَغْبَتُنَا أن يُبْقِيَ اللهُ فضلَهُ سَابِغاً عَلَيْكَ، وَخَوْفُنَا أن يَسْلُبَ اللهُ مالَكَ أو يَحْرِمَكَ جَنَّتَهُ.

وأنى للطاغية أن تَتَفَتَّحَ آذَانَهُ لِلنَّصِيحَةِ تُلقَى إليه؟! وَمَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمسّ شغاف قلبه؟

إن قارونَ قد أَشْرَبَ قلبه حُبَّ المال، وزاده الغنى غُلُوّاً واستكباراً، فليس لمثل هذا الكلام سبيل إلى نفسه... فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر؟! وتتطاوَلُ أعناقُهم إلى نُصْحِهِ فيتصح!

إنهم لا شك قد استباحوا حماه، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعينهم من أمره بل إن هذا من أموره الخاصة!!

لذلك كان جافياً في ردّه إذ قال: لستُ بحاجة إلى نصحكم، فأنا أرجحكم عقلاً، وأسدّدكم رأياً، وما أوتيتُ هذا المال، إلا لأنّي به أجدر وأحق، فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم، وقوموا بها أموركم، أما أنا فخيرٌ منكم مقاماً وأكثر عرفاناً.

وأراد أن يزيد في إيلاهم، فخرج على قومه في زيفته، يُدِلُّ بما أعطاه الله من خير وفير، ومال كثير.

ورآه المستضعفون من قومه يَرَفُلُ في الثياب الجميلة، ويركب المراكب المَطَهَّمة، وحوله الخدم يَحْفُوقُونَ به، فأحدقت به العيون، واستشرفَ الناسُ لرؤيته، وحزّ في نفوسهم أن يَرَوْهُ في هذا النعيم، وهم في ضنك ويؤُس مُقيم وتحدّث بعضهم إلى بعض يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم!

ولما كانت النصيحة مع مثله لا تُجدي، والنَّسَب لا يكفي عنده سبباً لعطف القلوب، ومنظرُ البؤس لا يستميلُ النفوس، والفقر لا يستجيب إلى دعائه مجيب، فليسِلَ سيفُ القانون لينفذ إلى تلك الحجب الكثيفة، فيهلك ظلماتها، ويزيل ما تراكم عليها، فتنبعث للخير، وتميل للإحسان.

ليعلن إليه موسى في شدة وإصرار أن يؤدّي زكاة ماله، وأن يحسن إلى الفقراء، ففي ماله حقٌ معلوم للسائل والمحروم.

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه، وran عليه شُحُّه، فلم يصنع إلى دعوة موسى، بل هزىء به وسخر، ورماه بالبهتان، وردّ حديثه في عنف وسخرية، فقال: قد احتملنا منك ما احتملنا، فقد جئتنا بدين جديد، فجاريناك فيه، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرك، فأطعك ذلك فينا، وجرّأك علينا، فلم يبقَ إلّا المالُ تسلبه، والثروة تريد أن تستحوذَ عليها، لقد أسلمنا لك القلوبَ وأخضعنا لك الرقاب؛ ولكن هيهات أن نسلم لك من القلب سُويْدَه، ومن الطرف سَوَادَه؛ إنك بهذا قد دلّلت على كذبك، وكشفت ما حاولت ستره من أمرك، إنك لساحر كذاب!!

وحاوَرَ قارون وداوَرَ، وأصر موسى وقاوم، فهذا أمرُ الله لا يحتملُ الجدل ولا المساومة، وخضع قارون بعد لأيٍ وعلى مضض!

ورجع إلى بيته يحسب ما ينالُ الفقراء من ماله، فهاله ما وجد، وأفزعه ما رأى، فرجع إليه داؤه، وتملكه شحه، وأراد أن يمسك المال حتى لا يرى نفوساً بائسه يدخل إليها النعيم والسرور، واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء، فقال: إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء، ليكون له من ذلك عَرَضُ الدنيا وزينة الحياة، ولو فتشنا عن مكنون سره، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعد الناس من الدين وأقصاهم عن الله.

وحاول بالمال أن يفتن الناس ويصرفهم عن موسى، ويزلزل عقيدتهم؛ ولكن الله كشف ما أضمر، وأظهر ما أخفى، وخرج موسى من هذه التجربة أصفى نفساً، وأعلى مقاماً.

ولما يش موسى من صلاحه دعا الله أن يُنزل به عذابه، ويُخلص الناس من فتنه وإغوائه.

فاستجاب الله لدعائه، وخسف به وبداره الأرض، فما كان له من فئة يُنصرونه من دُونِ الله وما كان من المتصيرين.

وابتلعته الأرض، وساخت فيها أمواله وقصوره، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه، ولما رأى القوم ما حلّ بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما

كان منهم، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله، وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَتُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (١).

* * *

(١) سورة القصص، الآيتان: ٨٢ و٨٣.